الجامعة المستنصرية / الكلية الآداب
قسم الانثروبولوجيا والاجتماع

القانون العرفي/ القانون، الاخلاق، الدين

الجزء الاول

علم الاجتماع القانوني - المرحلة الرابعة - الدراسة المسائية

زينة جسام

لقد تعودنا في العصر الحاضر على المفهوم العلماني للقانون كما وضعه الانسان للإنسان، وعلى الحكم عليه بمقاييس بشرية صرفة، وهذا يختلف كثيرا عما كان عليه الحال في العصور السالفة، عندما كان القانون يعتبر انه يتمتع بقداسه بقداسة تنبع من مصدر الهي او سماوي، وكان القانون والأخلاق والدين مترابطة بعضها مع بعض بشكل لا يمكن تجنبه، وكانت هناك قوانين اعتبرت مسنونة من مشروع اللهي، مثل الوصايا العشر، وكانت هناك قوانين أخرى، أعطيت هالة القداسة على الرغم من انها ذات مصدر بشرى مباشر، وذلك من خلال اغداق الالهام الإلهي على واضعيها من البشر.

وكان المشرعون في العصور القديمة يعتبرون انصاف الهة وابطالا واسطوريين، ونجد هذه النظرة المتميزة في المعالجة اليونانية القديمة الواردة في كتاب **افلاطون (القوانين)** حيث يسأل اثينى كريتيا (لمن ينسب تشريع قانونكم؟ لأله ام لبشر؟) فيجيبه الكريتي (لماذا؟ انه ينسب الى إله بدون شك).

هذا الشعور البدائي بان القانون متأصل بشكل ما بلدين وانه يستطيع تطبيق عقوبة الهية او نصف الهية لنفاذة، ناجم الى حد كبير عن هالة السلطة التي للقانون وخاصة الاعتقاد الذي اشرنا اليه بان هناك الزاما أخلاقيا بإطاعة القانون، وليس هناك احد ممن آمن بأن الآلهة من عليائها قامت هي نفسها مباشرة او من خلال انسان يرسم محتوى هذه نفسها مباشرة او من خلال انسان يرسم محتوى هذه القوانين بأحرف من نار لا تندثر سيتأثر كثيرا من وجهة النظر الفكرية الحديثة كتلك التي قالها الفقيه **(اوستن)** وهي ان القوانين تعتمد في نفاذها على العقوبة الشرعية او الجزاء الملحق بها،

ولم تكن العقوبة البشرية هي التي تعوز القانون في مراحله الأولى، بل على العكس فان الأنظمة القديمة كانت غنية بما تتضمنه من عقوبات مختلفة من ابشع الأنواع من مختلف اشكال التعذيب، كبتر الأعضاء وغيرها من الاختراعات الشاذة التي برع فيها قانون العقوبات الروماني، كإلقاء قاتل في البحر مربوطا بكيس ومصحوبا لمصيره بكلب او ديك او افعى او قرد، وحتى لو تمكن المتهم من ان يفلت من عقوبة البشر فإن الآلهة ستوقع عليه العقاب بطريقتها الخاصة، وفي الوقت الذي تختاره ان **قصة (اوريست (ORESTES** المعروفة جيدا في المآسي اليونانية القديمة تبين بوضوح الاعتقاد بتدخل الآلهة لمعاقبة منتهكي القانون، فقد قتل أوريست امه وعشيقها انتقاما لوالده القتيل.

ثم ظهر الغضب الإلهي ولاحق اوريست دون كلل بتهمة القتل، ولم يهدأ غضبه الا بعد تدخل الالهة "أثينا" الهة الحكمة. هذه الأسطورة توكد درجة المرونة في تطبيق العدالة الإلهية الناتجة عن نظام تعدد الالهة، حيث من الممكن ان يتدخل إله عند إله آخر فيخفف من صرامة القانون.

ومع انا الدين قام بدور أساسي ليضفي على القانون المحتوى الجزائي الخاص به، فانه يجب عدم الظن بان القانون كله الذي يطبق في دولة ما جاء بالضرورة مباشره او بصورة غير مباشرة من الله. اذ يجري التمييز عادة بين أجزاء القانون التي كانت تعتبر جوهرية وغير قابلة للتغير، لأنها كانت تنظم كيان المجتمع وعلاقة الافراد بلحاكم والكون، وذلك بالمقارنة بتلك القوانين التي وضعها الانسان والتي كانت تفتقر الى هذه الأهمية السماوية او الكونية، ولا شك في ان تمييزا كهذا لا مجال لظهوره في مجتمع كمجتمع مصر القديمة

حيث كان الفرعون يعتبر التجسيد الإلهي على الأرض ذلك ان أي قانون يصدره الفرعون مهما كان موضوعه تافهاً كان يتمتع بالسلطة الإلهية. ولكن كانت هناك مجتمعات بدائية قديمة لم تربط بين حكامها والالهة.

ولكن كانت هناك مجتمعات بدائية قديمة لم تربط بين حكامها والالهة، وكان هناك تمييز واضح بين ما هو بشرى في مجال القانون.